

٦- في بلاد الأحرار

للطبيب التركي الأستاذ آغا أغلو أحمد

للأستاذ أحمد مصطفى الخطيب

اجتماع - أقوال الخطباء

يا لها من بلاد عجيبة ؟ ما أصعب نيل الحرية ؟ . ليت شعري هل أستطيع إلفة هذه الحياة ؟ . لقد خيل لي الأمر في البداية سهلاً ميسوراً . . ولكن هاهي ذى المصاعب تتوالى وتتفاقم في النهاية . .

إن هناك دواشب في قرارات النفوس تركتها عهود التاريخ للبائسة من ورائها ، هي التي تستعبد الإنسان وتقيده أكثر من غيرها . .

وها إن الحال تتطلب الآن التخلص من نيرها وسلطانها دفعة واحدة . . . عليك أن لا تكذب ، أن لا تدهن ، أن تتحلى بالشجاعة ، أن تدافع عن الحق ، أن لا تعرف معنى التردد ، أن تقول الحق !

يا لها من شروط صعبة ثقيلة ؟ كيف لا يخشى جانب الرجل ذو البأس والقوة ؟ أو لا يجهر له بالصدق ؟ أو لا يتحاشى التزلف إليه ؟

إن المرء لتضطرب أحشاؤه وترتمد فرائصه عند رؤيته أحد هؤلاء الطغاة العتاة ... ورأسه يدور ، ورقبته تنحني ولسانه يباشر الحد والثنا بنير إرادة منه !

ولا يمكن أن أنسى قط ما كان يحدث لصديق لي كلما أراد عادة أحد الوزراء في التليفون فقد كان يشحب لونه ، ويتلثم لسانه ويأتى بحركات آلية مضحكة كما لو كان أمام الوزير نفسه بالذات لا أمام آلة صماء ... وقد شاهدته ذات مرة وهو يردد هذه العبارات في ارتباك ظاهر وذعر شديد :

« ... نعم يا مولاي ... بفضل عطفكم السامي ... هفوة الصغير فقو الكبير ... »

ثم ألقى بالساعة على الأرض بمنف وترامى على أحد المقاعد لاهثا وهو يقول :

— « آه ! ... كاد أن يقضى على ... لماذا كل هذا السخط والهباج ؟ .. كل ما في الأمر أنني رفعت نهار أسس تقريرا إلى معاليه ذكرت فيه نبذة قصيرة عن سوء سلوك نجله في الدائرة وفساد أخلاقه ... يا ويلي منه ومن ثورته وغضبه ... ولكنني لحسن الحظ استطعت تهدئة الحالة ... آه ... »

ومع أننا كنا نسخر آنذاك من هذا الصديق المتخاذل الرعيد ونهزأ به إلا أننا في الحق لم نكن لنختلف عنه من هذه الناحية إطلاقا

والآن كيف نستطيع استئصال شأفة هذه الملل التي نفذت إلى عظامنا وجرت مجرى الدم في عروقنا ؟

لم يغمض لي جفن في تلك الليلة من فرط تأثري .. بل ظلمت أودور في غرفتي طول الليل ... وإذا ظلمت تباشير الصباح ، سقطت على الأرض بكثة هامة من شدة الإعياء

وحين فتحت عيني كانت الشمس في متوع النهار ، وكان رأسي مثقلا بالصداغ .. فأحسست بحاجة شديدة إلى استنشاق الهواء النقي

ألقيت بنفسي إلى الشارع .. وقصدت إلى حديقة تجاور البيت الذي أقطنه ... كان البستانيون هنا منهمكين في ري الحديقة .. وكان ثمة على بعد قليل ينهض تمثال شامخ اقتربت من التمثال وقرأت على أحد جوانب قاعدته هذه الكتابة :

« بطل بلاد الأحرار الأول »

ملت إلى أحد البستانيين وسألته عن اسم الحديقة وعن هوية البطل

— هل أنت غريب عن هذه البلاد ؟

— نعم ! .. جئت حديثا !

— يطلق على هذا المكان حديقة الحرية ... وذلك التمثال يمثل أول وطني رفع لواء الحرية ضد الاستبداد .. فبلادنا تمبهه وتقمسه

وفي هذه الأثناء كان الناس قد أخذوا يتوافدون على المكان زمرا زمرا ... ولم تمر سوى هنية حتى عقدت اجتماعات عديدة أيضا في مختلف أنحاء المدينة

اقتربت من أحد هذه الاجتماعات .. فرأيت فتى يافعا يلقي خطابا حماسيا مؤثرا ... أصغيت إليه فاذا هو ينتقد الحكومة ، ويحمل عليها حملة شعواء لأنها تقاعست عن تنفيذ برنامجها بمخافيره ، وتركت عددا من الوطنيين في الشوارع لا يجدون لأنفسهم عملا .. ولأن الإحصاءات الأخيرة دلت على وجود اثنين في كل مائة أميين بين سكان المملكة ، وذلك بعد عارا كبيرا وصمة لا تمحى من جبين البلاد الحرة

اقتربت من جماعة ثانية ... فشهدت رجلا في منتصف العمر ، ضعيف البنية ، يتبسط في شرح النقائص التي يلاحظها على الجيل الجديد ، ويؤاخذهم بشدة على انهماسهم في المادية ، وانصرافهم عن المثل العليا ، وإغفالهم أمر الصلات الإنسانية والوطنية الرفيعة، ويرى أن هذه حالة ستؤدي بهم لا محالة إلى أن تكون آثارهم هزيلة عديمة الحياة ، ورؤوسهم فارغة جوفاء ، وسجايام منحلة سائرة نحو التلاشي والاضمحلال

وإذ كان الخطيب يبدى مخاوفه الشديدة من مغبة الأمر ، كان لا يجد دواء لداواة الوضع سوى المبادرة إلى إحداث تغيير شامل سريع في نظم التعليم وأهدافه وخططه التي تسير عليها الدولة في تنشئة الشبان وإعداد الجيل القبل

أما في الزمرة الثالثة فكان الخطيب سيده بارة الجمال تتحدث عن حقوق المرأة السياسية

وفهمت من أقوال السيدة الخطيبة أن النساء في بلاد الأحرار يملكن نفس الحقوق التي يتمتع بها الرجال ، ولا يضمن عليهن بسوى منصب رئاسة البلاد فقط

وقد كانت الخطيبة تشير إلى هذه الناحية في انتقاداتها وهول : — « كيف يسوغ أن يضمن بهذا المنصب على المرأة ، ثم لا يضمن به على الابن الذي تلده ؟ »

إنهم يحدثننا عن الخواص الفيزيولوجية .. وكأن الرجال جميعا في منجاة عن النقائص الفيزيولوجية

أذهبوا إلى البيمارستانات ، إلى السجون ... ادرسوا

إحصاءات الجرائم ، فلا أظن النتيجة ستكون بجانب الرجال .. إن هذه المخاوف ليست سوى أعذار تافهة ، لا تخرج عن كونها بقايا أسلحة فاسدة استعملها الرجل منذ قديم الزمان لضمان استمرار سيطرته على النساء وبقاء استبداده بشؤونهن .. ولكن المرأة سوف تنقضي على هذه البقية الباقية أيضا كما قضت من قبل على القيود الأصلية نفسها وحطمتها إلى الأبد ، وذلك بفضل كفاحها المستمر ونضالها الدائم ، وجهادها الذي لا يفتر ولا يني أجل سوف يعلم الرجال أن هذا الملجأ الأخير الذي يأوون إليه ، يجب أن تفتح أبوابه على مصاريقها أمام النساء نرولا عندما يقضى به الشرف والكرامة ... وأن وجود أقل تفاوت في الحقوق بين الأفراد في بلاد الأحرار ليس إلا وصمة عار في جبين الحرية نفسها . وسوف تمحو المرأة هذه الشائبة مهما طال بها الأيام أو بعدت أمامها الشقة ... »

كانت هنالك جماعات أخرى أيضا .. غير أنني كنت قد أحسست بالتعب ... فجلست فوق أحد الكراسي ، وشرعت أفكر في جميع هذه المشاهد التي مرت أمامي ولم أكن قد رأيتها أو سمعت بها من قبل

وكان من أشد ما أثار عجبى أسلوب الخطباء ولهجتهم في أثناء الكلام .. فقد كانوا يحصرون انتقاداتهم في دائرة الوقائع والحوادث ، ويمنون عناية كبيرة بأن لا يظهر على حديثهم أى أثر للتذنب أو الشكوك أو التردد ، مسببين عليه ثوبا من عفة اللسان والوقار ، متكئين عن استعمال أية كلمة نابية فيها حرج لماطفة الشخص الذى يتصدون لانتقاده أو من لكرامة من يشنون الحملات عليه ...

وقد ترأى لى في الوقت نفسه من المعانى المتجلية في عيون الستمين ، وإمارات الجدالات على وجوههم ، أنهم يستينفون هذا النوع من النقد ويرتاحون له ويؤثرونه على سواء ، ويمجدونه أضمن للقائدة وأبقى

وقد ذكرنى — بنير إرادة منى — ما شاهدته هنا من الصور الجديدة ، ما فى بلادى من أساليب النقد وفنون النقاش بالهول الإسفاف الشنيع والهور الجامح ! .. وإلهول السباب

فما معنى ذلك ؟

- أجل ! إن وجود التساند والمؤازرة شرط أساسي في بلاد
الأحرار ... انظر إلى الأنظار غير الحرة تجدد فيها الأفراد والأسر
كلا مستقلا بنفسه عن غيره ، وليس بين ظهرائهم من الصلات
والروابط إلا النزر القليل . . ذلك لأن سيف الاستبداد الصلت
على رؤوس هؤلاء لا يفسح في المجال لهم بالتآزر والتآلف وتكوين
جهة واحدة وكيان واحد . .

فالشرط الأساسي في هذه الممالك التفرق والتخاذل ووقوف
« المواطن » موقف الأجنبي من أخيه المواطن وعدم اهتمام
بعضهم ببعض ...

وكما أنه من اليسور جدا سحق أفراد مجتمع كهذا وإفناؤه ،
كذلك من السهولة بمكان ... أن يلعب المرء كما يشاء بهذا المجتمع
نفسه كما لو كان خرقة بالية عديمة الدم والحياة ...

أما في بلاد الأحرار ، فالشرط الأول هو الاتحاد والإيثار
والإلفة التامة بين الأفراد والاهتمام بما يحدث ويقع للمواطنين ...
والكل هنا كحلقات الشبكة تتأثر من المطب الذي يصيب أي
واحدة منها ...

وشؤون المجتمع ذاته لا تمتد ولا تستقيم إلا إذا نجح أفرادها
جميعاً مما حاق بهم من الأخطار وأصابهم من الألم والاضطراب
هنا يتحتم على كل فرد أن يكفل بصيانة حقوق غيره وشرفه
وكرامته . . وليس في معجم البلاد أقوال من قبيل : « إذا مت
ظلماً أنا فلا زل القطر » « عث لنفك » « هل أنا الذي
أستطيع إصلاح العالم ؟ »

- آه أيها الأستاذ ! إني مصغ إليكم بكل كياني وبكل لذة
وشنف . . ولكن وأأسفاه . . إن جميع الماديات التي ألفتها
والثقاليات التي جريت عليها لمي على طرفي تقيض مما تفضلتم على
بشرحه وإيضاحه ... ليت شمري كيف أستطيع أن أعير
ما بنفسى ... إلهي ! ما أصعب أن يكون الإنسان حراً ...

- نعم يا بني ؟ ليست الحرية سهلة سائفة ... والعبودية أسهل
منها ... فبينما البديس لم زمامه إلى غيره ليقوده كما يريد ويهوى نجد
الحر مكلفاً بالتفكير في غيره ...

إن كل مواطن هنا مكلف بحب الغير ، ومعنى حب الغير

والشئام المقدعة . . أقوال مضطربة لا رابط بينها ، إشارات
غامضة ، إيماءات منقلبة مستهجنة . . ولطالما حدث أن السامعين
وللقارئين سدوا آذانهم ، وأغضوا عيونهم تفرزاً واستنكاراً ، ثم
هبوا جميعاً يطالبون بوضع حد لثل هذا الجو الوبوء الخناق ،
فظهرت قوة طاغية كت أفواه التكلمين وعصبت عيون الشاخصين
مماً بشكل محكم ، حتى عاد الناس في هذه المرة يشعرون
بالاختناق من الصمت والظلام

آه ! ما أعظم كارثة الإفراط والتفريط ! لقد اقتنعت الآن
أن الحرية لا يمكن أن تنال بمجرد الرغبة فيها ، أو المطالبة
بتحقيقها ... إن على الإنسان أن يربى شخصيته ، ويخلق من نفسه
سيداً قبل كل شيء ...

- أجل ! أجل ! على الإنسان أن يكون سيداً !

- إلى من تتحدث يا عزيزي ؟

استندرت قليلاً . . فوجدت أحد الضيوف الإخوان جالسا
إلى جانبي ، يرمقني بنظرات التعجب والحنان وأنا أحادث طيفي
المائل أملئ . .
قلت معتدراً :

- كنت غارقاً في التفكير وأنا أقارن بين ما شاهدته اليوم
وما وقع لي بالأمس فبدت تلك الكلمات مني دون وعي . .

فأبتسم ابتسامة رقيقة ثم قال :

- لا تحزن ! هذه مرحلة قد تخطاها كل واحد منا . .

- إذن أنتم هنا منذ وقت طويل . .

- أجل !

- أرجو أن تخبروني : هل تقصد هذه الاجتماعات هنا

كل يوم ؟

- كل يوم على وجه التقريب . . وتلك الساحة أشبه

بمدرسة شعبية طامة يستطيع أي مواطن أن يطلع فيها على كل
ما يمينه أمره من شؤون بلاده :

- يالها من عادة حسنة !

حضر الأستاذ في اليوم التالي ثانية قلت غاطباً أحدم :

- ننسى المادة العائنة على أن التساند بين واجب الأداء ،